

صوت الصدر بين الهمس والجهر

أ. د. أحمد محمد قدّور (*)

تمهيد :

رأينا حين عرضنا لأصوات اللغة عند سيبويه^(١) أنّ المجال ما يزال قابلاً لإعادة النظر، وتفسير الغامض، وتوجيه ما اختلف فيه توجيهاً جديداً. ثم انتهينا في الحديث عن الجهر والهمس عند سيبويه^(٢) إلى أنّ ما أورده صاحب لسان العرب من تعريف للهمس والجهر يكاد يفسّر تفسيراً «جديداً» دور صوت الصدر في عملية الجهر، على أمل أن تجمع المادة الصالحة لتخصيص صوت الصدر ببحث مستقلّ. وقد نَبّهنا ما ذكره ابن منظور إلى ضرورة مراجعة المعاجم لسدّ النقص الملحوظ في تعريف الجهر والهمس لدى النحاة ودارسي اللغة عامة، ولدى سيبويه خاصة. ومعروف أنّ سيبويه لم يذكر صوت الصدر حين عرّف الجهر والهمس في مقدمة باب الإدغام، مع أنه ذكره في موضوع متقدم على باب الإدغام حين عرض للحروف المشربة.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) انظر: بحثنا «أصوات اللغة عند سيبويه»، في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (٨٦)، الجزء الثاني لعام ٢٠١١، ص ٣٦٣-٣٨٨.

(٢) انظر: بحثنا «الجهر والهمس عند سيبويه في ضوء الدرس الحديث»، في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (٨٦)، الجزء الثالث لعام ٢٠١١، ص ٦٩٣-٧١٢.

ولا شك في أنّ التأليف المنظم في علوم العربية كان جديداً في عهد سيبويه، لذلك وجدت أشياء من مباحث الكتاب موزعة بين أبوابه وفق الحاجة إلى تناولها، كما وجدت عنوانات يشترك فيه أكثر من باب، ومصطلحات تنطبق على ظواهر متعددة. ومعروف لدى الدارسين أنّ من مصطلحات سيبويه ما ثبت واستقرّ، ومنها ما اختصر وأعيدت صياغته، ومنها ما تعيّر، أو لم يجد سبيلاً إلى الحياة في المصنفات التالية^(٣). ولقد تأكد لنا من عملنا في كتاب سيبويه أن مفتاح الكثير من المسائل الغامضة يكمن لدى الخليل بن أحمد الفراهيدي فيما روي عنه في مصادر متعدّدة نقلها تلاميذه، وبثوها في شروح الكتاب، أو في المعاجم وكتب النحو واللغة الأخرى، على نحو ما جاء لدى الزّجاج وابن دريد والأزهري والسيرافي وغيرهم. وأذكر أنني حين شرعت أعمل في مقدمة كتاب العين للخليل واجهت صعوبات تتعلق بإثبات ما رواه الليث بن المظفر عن شيخه الخليل، وتفسير غوامضه، فعمدت أنظر في روايات وردت عن الخليل في كتب أخرى جاءت عن غير طريق الليث، لأدّّل ما أشرت إليه من صعوبات، وأثبت ما تأكد لي من روايات.

صوت الصدر في الفرق بين الهمس والجر:

أورد الخليل في مادة «همس» تعريفاً للهمس ذكر فيه صوت الصدر، كما ذكر فيه «الإشراب». وهما من مصطلحات الكتاب لسيبويه. وجاء فيه: «الهمس: حسنّ الصوت في الفم مما لا إشراب له من صوت الصدر، ولا جهارة في المنطق، ولكنه كلام مهموس في الفم كالسرّ...»^(٤) وجاء في

(٣) انظر: الحديثي، خديجة عبد الرزاق، «المصطلح الصرفي في كتاب سيبويه»، مؤتمر النقد الأدبي الخامس بجامعة اليرموك، ١٤/٦-١٦/٦/١٩٩٤م، ص ١-٤.

(٤) الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مادة «همس» ١٠/٤.

تفسير «الإشراب»: «والإشراب: لون قد أشرب في لون، يقال أشرب فلان حبّ فلانة، أي خالط قلبه..».

وجاء في تهذيب اللغة للأزهري (ت ٣٧٠هـ) في مادة «همس»: «قال الليث - راوي كتاب العين - الهمس حسن الصوت في الفم، مما لا إشراب له من صوت الصدر، ولا جهارة في المنطق، ولكنه كلام مهموس في الفم كالسرّ..»، وفي موضع تالٍ يرد قول شمر (شمر بن حمدويه ت ٢٥٥هـ): «الهمس من الصوت والكلام: ما لا غور له في الصدر، وهو ما همس في الفم». وشمر - كما وصفه الأزهري - لقي أصحاب النضر بن شميل والليث ابن المظفر - تلميذَي الخليل - فاستكثر منهم^(٥).

وفي لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١هـ) يرد نصّ كتاب العين دون عزو، على النحو التالي: «الهمس والهَميس: حسن الصوت في الفم، مما لا إشراب له من صوت الصدر، ولا جهارة في المنطق، ولكنه كلام مهموس في الفم كالسرّ»^(٦)، كما يرد كلام شمر السابق. والكلام كلّ منقول من تهذيب اللغة للأزهري. وفي تاج العروس للزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) يرد النصّ الذي يعرّف فيه الهمس معزواً إلى الليث، كما تقدّم في تهذيب اللغة. ونقل الزبيدي زيادة من ابن جني جاء فيها: «قال ابن جني: فأما حروف الهمس فإن الصوت الذي يخرج معه نفس، وليس من صوت الصدر، إنما يخرج منسلاً»^(٧).

(٥) الأزهري، تهذيب اللغة، ٦/١٤٢-١٤٤، مادة (همس) وانظر أيضاً ١٧،٢٥/ من التهذيب نفسه. وانظر وصف الخليل وتلاميذه ومنهم سيبويه في كتاب تذكرة النحاة لأبي حيان الأندلسي، ص ٦٨٩-٦٩٠ وانظر نص شمر السابق في كتاب: مرويات شمر بن حمدويه اللغوية لحازم سعيد يونس البيّاتي، ص ٩٢٥.

(٦) ابن منظور، لسان العرب، ٦/٢٥٠-٢٥١، مادة همس، والفيروزآبادي، القاموس المحيط مادة (همس).

(٧) الزبيدي، تاج العروس، ١٧/٤٠-٤٣، مادة همس.

ويتبين مما تقدم أنّ الخليل صاحب التعريف السابق، فرّق بين حسّ الصوت في الفم وحده - وهو الهمس -، وبين إشراب «الصوت» صوتاً من الصدر، مع جهارة في المنطق، وهو الجهر. والخليل لا يذكر الجهر مصطلحاً ههنا، إنما يكتفي بتعريف ضده الهمس. لكنه يبيّن شرطين للمجهور هما: مزجه بصوت الصدر، ومصاحبته لقوة النطق، أي للجهارة. أما صوت الفم فهو مقصور عليه وحده، على حين أن المجهور له غور، أي عمق أو بعد في الصدر، كما عبّر شمر فيما نقل عنه. وهكذا يتضح مصدر كلام سيويه الذي عرّف به «الحروف المُشربة»، وذكر فيه صوت الصدر. وأرى أن تفسير المشربة يجب أن ينطلق من تعريف الخليل قبل تحليل كلام سيويه. ويبدو أن سيويه لم يجد ضرورة لشرح كلامه، لأنه يعبر عن معرفة شائعة لدى أهل الاختصاص ممّن تلقوا عن الخليل وألقوا في علمه. والغريب أن يذهب أحد العلماء الفضلاء إلى أنه لا ذكر للمجهور والمهموس في كتاب العين بإطلاق^(٨). ولو أن هذا العالم اقتصر في حكمه على مقدمة كتاب العين لكان حكمه صحيحاً.

ونقل إبراهيم أنيس نصّاً من مخطوطة لشرح السيرافي لكتاب سيويه عن الأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ) يسأل فيه عن الفرق بين المجهور والمهموس. ويبدو أن أنيس أول من تفتن لهذا النص، والفضل للمتقدّم، وفيه ذكر لصوت الصدر. وفي النص إشارة مهمة إلى أن الكلام الذي رواه الأخفش ربما كان منقولاً من الخليل لا من سيويه. وأبرز ما جاء في النصّ المشار إليه قول السيرافي فيما روى عن الأخفش في الفرق بين المجهور

(٨) انظر: الحمد، غانم قدوري، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص ١٢٨، الحاشية

والمهموس، عن سيويه (أو الخليل): «فإنك لا تصل إلى تبئن المجهور إلا أن تدخله الصوت الذي يخرج من الصدر. فالمجهورة كلها هكذا يخرج صوتهن من الصدر ويجري في الحلق.. أما المهموسة فتخرج أصواتها من مخارجها، وذلك مما يزجي الصوت، ولم يعتمد عليه فيها كاعتمادهم في المجهور، فأخرج الصوت من الفم ضعيفاً... فإذا قلت شَخَصَ فإن الذي أزجى هذه الحروف صوت الفم، لكنك تُتبع صوت الصدر هذه الحروف بعدما يزجيهما صوت الفم ليبلغ ويفهم الصوت»^(٩).

وفسر أنيس صوت الصدر بأنه ربما كان صدئاً لذبذبة الوترين الصوتيين في الحنجرة، وفهم أن المجهور له مصدران للتصويت، أحدهما حنجري، والآخر فوق حنجري، على حين أن المهموس له مصدر واحد هو «الفم» وحده، ولا عمق له في الصدر^(١٠). ونقل (هنري فليش) النص نفسه في كتابه «العربية الفصحى»، وانتهى إلى أنّ الفرق بين المهموسة والمجهورة هو «صوت الصدر» غائب في الأولى، موجود ضرورة في الثانية بسبب ارتفاع الصوت^(١١). وكذلك نقل غانم قدوري الحمد النصّ مشيراً إلى إبراهيم أنيس، ومنتهاً إلى ما انتهى إليه من تفسير. واستتج قدوري الحمد أنّ «صوت الصدر» هو جوهر الأصوات المجهورة، على رأي سيويه^(١٢).

وأشار ابن جني (ت ٣٩٢هـ) في مواضع من كتابه «سر صناعة الإعراب» إلى «صوت الصدر». من ذلك أنه ذكر الصدى المنبعث من الصدر حين عرض

(٩) انظر: أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، ص ١٢٢.

(١٠) انظر: السابق، ص ١٢٣.

(١١) انظر: فليش، هنري، العربية الفصحى، تعريب عبد الصبور شاهين، ص ٢٠٠ وكتاب فليش صدر بالفرنسية عام ١٩٥٦م.

(١٢) انظر: الحمد، غانم قدوري، الدراسات الصوتية، ص ١٣١.

لحروف العلة «الصوائت الطويلة»: الألف والواو والياء. ويمكن أن يفهم من الصدى أنه الرنين المرافق لحركة الوترين الصوتيين. وقد علق (هنري فليش) على ذلك بقوله: «يعالج ابن جني أولاً مسألة وجود صوت يطلق عليه الصدى الذي يصدر من الصدر. وهنا نتعرف جهل ابن جني لدور الحبال الصوتية، وهو جهل يشركه فيه جميع النحاة العرب، غير أن جهلهم بالسبب لا يستتبع مطلقاً أنهم لم يستطيعوا إدراك الأثر. فهم قد لاحظوا إذن «صوتاً» كان يخرج من الصدر، وهو صوت الصدر على ما عبّر عنه سيويه»^(١٣). كما أنّ ابن جني ذكر صوت الصدر حين عرض للحروف المشربة كما سنشير لاحقاً.

ونقل بعض علماء العربية والتجويد - كما يقول غانم الحمد - فكرة صوت الصدر وصوت الفم المميّزة بين المجهور والمهموس عند سيويه - هي للخليل كما حقّقنا - ولكن دون نسبتها إليه. من ذلك ابن بسطام (كان حيّاً سنة ٤٢٥هـ) الذي جعل صوت الصدر مجهوراً. «.. وإنما سميت مجهورة، لأن الاعتماد يسمع في موضع الحرف منها، فلا يجري النفس حتى ينقضي الاعتماد، وخرج صوت الصدر مجهوراً»^(١٤). وجاء في شرح المفصل لابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) «أنّ المهموسة هي التي تُردّد في اللسان بنفسها، أو بحرف اللين الذي معها، ولا يمتنع النَّفس. والصوت الذي يخرج معها نفس وليس من الصدر»^(١٥). كما ذكر الأستراباذي (ت ٦٨٦هـ) في شرح الشافية: «والمجهورة تخرج أصواتها من الصدر، والمهموسة

(١٣) انظر: فليش، هنري، «التفكير الصوتي عند العرب في ضوء سرّ صناعة الإعراب لابن جني»، تعريب وتحقيق عبد الصبور شاهين، مجلة مجمع القاهرة، مجلد (٢٣) لسنة ١٩٦٨، ص ٥٨.

(١٤) انظر: الحمد، مرجع سابق، ص ١٣٢-١٣٣.

(١٥) انظر: ابن يعيش، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، ١٠/١٢٩.

تخرج أصواتها من مخارجها في الفم، وذلك مما يرخي (أو يزجي؟) الصوت فيخرج الصوت من الفم ضعيفاً. ثم إن أردت الجهر بها وإسماعها أتبت صوتها بصوت من الصدر ليفهم»^(١٦).

صوت الصدر والحروف المشربة:

رأينا فيما تقدّم أن الخليل هو أول من ذكر صوت الصدر وإشراجه لغير المهموس، أي للمجهور، ورأينا أنّ ما رواه الأخفش الأوسط يؤكّد أن صوت الصدر معيار الفصل بين المجهور والمهموس. أما الإشراب فقد ذكره سيبويه حين عرض لتحريك الساكن السابق لآخر الحروف في الوقف. ولم يكن سيبويه يعرض هنا تعريفاً مقصوداً للمجهور والمهموس كما سيرد عنده في موضع لاحق^(١٧). ويصف سيبويه حروف القلقلّة بالحروف المشربة - دون شرح - كما يصف من المشربة حروفاً يخرج معها نحو النفخة، مع أنها لم تضغط ضغط الأولى، «لأن هذه الحروف إذا خرجت بصوت الصدر انسلّ آخره وقد فرّ من بين الثنايا لأنه يجد منفذاً فتسمع نحو النفخة»^(١٨). ومنها حروف مشربة لا تسمع بعدها في الوقف شيئاً، لأنها ليست مضغوطة كحروف القلقلّة، ولا تجد منفذاً كالحروف التي يخرج معها نحو النفخة، وهي الزاي والطاء والذال والضاد. أمّا الحروف الخالية من الصوّيت الحادث في أثناء القلقلّة، ومن نحو النفخ في الحروف الأربعة، فهي اللام والنون والميم والعين والغين والهمزة. ويذكر سيبويه الحروف

(١٦) انظر: الأسترابادي، شرح الشافية، ٢٥٨-٢٥٩/٣، ولعلّ صواب (يرخي) يزجي، كما تقدّم في معظم النصوص.

(١٧) انظر: سيبويه، الكتاب، تحقيق عبدالسلام هارون، ١٧٤-١٧٦.

(١٨) انظر: السابق، ١٧٤/٤.

المهموسة على هذا النحو: « وأما الحروف المهموسة فكلها تقف عندها مع نفخ، لأنهن يخرجن مع التنفس لا صوت الصدر، وإنما تنسل معه...»^(١٩).

ويتضح مما تقدّم أن سيويه صدر عن تعريف الخليل للمهموس الذي لم يشرب صوت الصدر. فالمُشرب إذن في هذا السياق يقابل المهموس، فليس للمشرب معنى إلا أنه الذي أُشرب صوت الصدر. فكلّ الحروف التي وصفها سيويه بالمُشربة مجهورة. أما المهموسة فذكر نصّاً أنها تخرج بالتنفس لا بصوت الصدر. فصوت الصدر إذن علامة على المجهور دون المهموس.

وقد ذكر السيرافي (ت ٣٦٤هـ) في شرحه لكتاب سيويه النوع الأول من المشربة، وهي حروف القلقة، وأضاف إليها الكاف. ونقل المقطع الثاني المتصل بالحروف التي يخرج معها نحو النفخة، وحرّف العبارة، فصارت «لا يجد منفذاً»، والصحيح أنه «يجد منفذاً» كما جاء لدى سيويه في وصف صوت الصدر الذي ينسل آخره من بين الثنايا، لأنه يجد منفذاً. وأضاف السيرافي حين عرض لهذه الحروف السابقة، أن سيويه ذكرها لأنها من الحروف المجهورة. لكنّ السيرافي يزعم أن سيويه ذكر التاء في حروف القلقة، كما سبق أن زعم أن سيويه ذكر الكاف مع هذه الحروف، وهذا خطأ محض، ولم يرد شيء من ذلك في الكتاب، كما وصل إلينا^(٢٠).

ونقل ابن جني ملخصاً لكلام سيويه، ذكر فيه أن حروف الهمس يخرج الصوت معها، وهو نفس، وليس من صوت الصدر. لكن ابن جني أهمل وصف النوع الثالث مما ذكره سيويه، وهو: «حروف مشربة» لا تسمع بعدها شيئاً من الضغط أو نحواً من النفخ. فقال: «ومن الحروف ما لا تسمع

(١٩) انظر: السابق، ٤/ ١٧٥.

(٢٠) انظر: فائز عبد المنعم، السيرافي النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيويه، ص ٤٢٥-٤٢٧.

بعده شيئاً مما ذكرناه...». وليس هناك تفسير مقبول لإسقاط صفة «مشربة» من هذا النوع لدى ابن جنى^(٢١).

وذكر ابن عصفور (ت ٦٦٩هـ) في تقسيم صفات الحروف أنّ: منها متقلقل، ومشرب، وما ليس فيه قلقلة وإشراب. ويفهم من هذا التقسيم أنّ المشرب هو الذي ينطبق على الحروف الأربعة: الزاي والطاء والذال والضاد فقط. لكن ابن عصفور سرعان ما يخل بالقسمة حين يذكر بعد المتقلقل والمشرب قسماً هو: ومن المشرب: ما لا يخرج بعده شيء من ذلك. ويقصد بذلك: ما ليس فيه قلقلة ولا إشراب؟ وعلق محقق الممتع ناقلاً من سرّ الصناعة أنّ الصواب هو: ومن الحروف، لأنه يذكر الحروف التي ليس فيها قلقلة ولا إشراب^(٢٢). وهذا التعليق خطأ واضح، لأنّ المشربة كما ذكر سيويوه، وهو المعتمد تشمل حروف القلقلة، وحروف نحو النفخ، والحروف التي ليس معها قلقلة ولا نحو نفخ، يقابلها المهموسة التي تتصف بالنفخ لخروجها مع التنفس لا صوت الصدر.

وليس لدى الأسترابادي في شرح الشافية ذكر «للمشربة». إذ يذكر مصطلحات: القلقلة والمهموسة وبعض الحروف لشرح الأقسام التي وجدناها لدى سيويوه سابقاً. ويذكر مع حروف القلقلة أنّ «شدة الصوت المتصعد من الصدر مع ضغط اللسان في مخرجها في الوقف يمنع خروج ذلك الصوت»^(٢٣). لكن الأسترابادي يضيف إضافة خاطئة حين يزعم أنّ الحروف التي لا يصحبها في الوقف قلقلة أو شبه نفخ أو نفخ، وهي اللام والنون والميم

(٢١) انظر: ابن جنى، سرّ صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداي، ١/٦٣-٦٤.

(٢٢) انظر: ابن عصفور، الممتع، تحقيق فخر الدين قباوة، ٢/٦٧٥-٦٧٦، الحاشية رقم (١) من الصفحة السابقة.

(٢٣) انظر: الأسترابادي، شرح الشافية، ٣/٢٦٣.

والعين والغين والهمزة، لم يتصعد معها من الصدر صوت يحتاج إلى إخراجها، وأيضاً لم يحصل ضغط تام^(٢٤). والصحيح هو ما ذكره سيبويه.

وأشار الخضر اليزدي (أتم شرحه للشافية عام ٧٢٠هـ) إلى أن القلقله تحصل لأن الحروف شديدة مجهورة، فالجهر يمنع النفس أن يجري معها، والشدة تمنع أن يجري صوتها، فلما اجتمع هذان الوصفان احتاجت إلى التكلف في بيانها، فلذلك يحصل ما يحصل من الضغط^(٢٥).

ووقف من المحدثين عبد الصبور شاهين في كتابه «في التطور اللغوي» على ما أطلق عليه، صورة أخرى لتفكير سيبويه في الجانب الأدائي، شارحاً نصّ سيبويه حول الحروف المشربة، ورأى أن التفرقة بين المجهور والمهموس تقوم على أساس أن الصوت المجهور يصدر من الصدر والفم، على حين أن المهموس ليس له إلا الفم وحده. ورأى شاهين أن سيبويه لم يعرف الحنجرة - والصواب: الوترين الصوتيين داخل الحنجرة - لكنه عرف أثر ما يحدث فيها، أي في الصدر من ذبذبة^(٢٦). ولا جدال في ذلك، فالكلام معروف، وقد سبق إليه المستشرقون.

وينتهي شاهين إلى أن سيبويه أراد بالمشربة أنها مجهورة، ويكون ذلك نوعاً من التعبير عن الجهر سنج له في مرحلة متقدمة من تأليف الكتاب، حيث تصور أن (صوت الفم) أشرب (صوت الصدر) ثم صنف على هذا الأساس كل الأصوات (المشربة) في رأيه. ثم عدل فيما بعد عن الوصف (مشرب) إلى الوصف (مجهور) في مقابل (مهموس) وذلك في آخر

(٢٤) انظر: المرجع السابق، ٣/٢٦٣، وقارن بكتاب سيبويه، ٤/١٧٥.

(٢٥) انظر الخضر اليزدي، شرح الشافية، تحقيق حسن عثمان، ٢/١٠٠٥.

(٢٦) انظر: شاهين، عبد الصبور، في التطور اللغوي، مؤسسة الرسالة، ص ٢١٢-٢١٣.

الكتاب، إذ كان في نظره أنسب. ويؤيد ذلك - كما يقول شاهين - أن سيبويه وضع مقابل (المشربة) (المهموسة). فالمهموسة لم تشرب صوت الصدر، أي إنها ليست مجهورة^(٢٧). والكلام صحيح، لكن سيبويه يصدر عن علم الخليل وما أسسه وأرساه في كتابه العين ابتداءً، أما استعماله مصطلحاً آخر هو (الجهر) فله شأن آخر قد لا نستطيع تأويله بما نملك من أدلة. فسيبويه يُعرض عن ذكر الجهر في موضع قريب من حديثه عن «المشربة». إذ يقول في باب الوقف في الواو والياء والألف: «وهذه الحروف غير مهموسات، وهي حروف لين ومدّ، ومخارجها متسعة لهواء الصوت....»^(٢٨). فهل يمكن تفسير هذا العدول عن مجهورة إلى غير مهموسة؟ إن ما نستطيعه هو ما يتوفر له الدليل، ويعضده الاستنتاج، وتقربه الأمثلة والنظائر. ويرى شاهين أن هناك مواضع في كتاب سيبويه عدل فيها عن استعمال مصطلحات تقدمت في أوله، فتغيرت في ثنياه وفي آخره^(٢٩).

ووقف غانم قدوري الحمد على نصّ سيبويه بشأن الحروف المشربة، ورأى أن المقصود بالحروف المشربة هو الحروف المجهورة، أي التي أشربت صوت الصدر، أي تخرج مع صوت الصدر أخذاً من قول سيبويه في ذات المكان عن الحروف المهموسة «يخرجن مع التنفس لا صوت الصدر». وأضاف إلى ذلك أنه ورد في هذا النص -نصّ سيبويه- مصطلحاً «صوت الصدر» و«صوت الفم»، وهما مستعملان في المعنى نفسه الذي استعمالاً فيه في رواية السيرافي. ويقصد قدوري النصّ المرويّ عن الأخفش

(٢٧) انظر: المرجع السابق، ص ٢١٦.

(٢٨) انظر: كتاب سيبويه، ١٧٦/٤.

(٢٩) انظر: شاهين، التطور اللغوي، ص ٢١٧.

الأوسط الذي سبق ذكره في هذا البحث. وانتهى الحمد إلى أنه يترجح من سياق النص أن المقصود بالحروف المشربة حروف الجهر، لأنها أشربت صوت الصدر، في مقابل الحروف المهموسة. غير أن سيبويه لم يذكر المشربة في سياق تعريفه المجهور في باب الإدغام^(٣٠).

على أنني كنت أردّ مثل هذا الاستنتاج الذي رأيناه لدى الحمد لنقص الأدلة^(٣١). كما كنت أتوقع أن هناك نقصاً في رواية الكتاب - كما جاءت في طبعة بولاق وهارون - مكانها القسم الثالث من كلام سيبويه عن الحروف المشربة. ففي القسم الأول - من تقسيمنا نحن - يقول: «واعلم أنّ من الحروف حروفاً مشربة ضغطت من مواضعها...»، وهي حروف القلقلّة. وفي القسم الثاني يقول: «ومن المشربة حروف إذا وقفت عندها خرج معها نحو النفخة...». وفي القسم الأخير يقول: «ومنها حروف مشربة لا تسمع بعدها في الوقف شيئاً مما ذكرنا...»^(٣٢). وهنا كنت أتوقع نقصاً هو: ومنها حروف (غير) مشربة. لأنني فهمت من المشربة أنها أشربت صوتاً أو نفخاً. فإذا جرّدت من الصوت أو النفخة بات وصفها بالمشربة خطأ. غير أنّ وقوفي على النص الذي نقلناه من كتاب العين غير من رأيي، وجعلني أرى أنّ المقابلة في نصّ سيبويه هي بين المشرب والمهموس^(٣٣). والمشرب هنا يقوم مقام المجهور.

خاتمة:

وهكذا تبين أنّ الخليل هو واضع المفهومات السابقة التي تتصل

(٣٠) انظر: الحمد، الدراسات الصوتية، ص ١٣٢.

(٣١) انظر: الحمد، شرح المقدمة الجزرية، ص ٢٩٠.

(٣٢) انظر: الكتاب، تحقيق هارون، ٤ / ١٧٥.

(٣٣) انظر: بحثنا، الجهر والهمس، مج ٨٦ / ج ٣، ص ٧٠٠.

بالهمس والإشراب وصوت الصدر والجهارة، وأن سيويه استعمل منها ما رآه ضرورياً لدرسه، وليس هناك شك في أن أصول هذا العلم هي للخليل، وقد أَلَّف سيويه - كما قيل - كتاباً من ألف ورقة في علم الخليل^(٣٤).

أما تعريف سيويه للجهر والهمس في باب الإدغام فقد اتجه فيه لبيان الأثر الذي يخلفه (حصر) الهواء في أحياز النطق الرئيسة في الحلق والقم والخياشيم، مما يولد (جهارة) في المنطق^(٣٥). وليس لصوت الصدر دور في ذلك إلا أنه مصدر الهواء المحصور. وقد فصل الخليل بينهما على كل حال، أي بين صوت الصدر، والجهارة في النطق. وأرى أن «الجهارة» صفة تدل على «إفراط» في الأثر السمعي الذي يخلفه المجهور^(٣٦). وربما كان منه قدر في المهموس. والدليل على ذلك أن سيويه حين عرّف المجهور والمهموس في باب الإدغام ذكر مع المجهور «إشباع» الاعتماد، وذكر مع المهموس «إضعاف» الاعتماد. مما يشير إلى أن الاعتماد هو العملية النطقية

(٣٤) انظر: كتاب سيويه، ١/ ١٩. (من مقدمة التحقيق).

(٣٥) انظر: يقول سيويه في باب الإدغام، ٤/ ٤٣٤ (ط. هارون) «فالمجهورة (لعلّ الصواب: فالمجهور مشاكلةً للمهموس، كما سيرد لاحقاً): حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد (عليه) ويجري الصوت. فهذه حال المجهورة في الحلق والقم، إلا أن النون والميم قد يعتمد لهما في القم والخياشيم فتصير فيهما غنة. والدليل على ذلك أنك لو أمسكت بأنفك ثم تكلمت بهما لرأيت ذلك قد أدخل بهما. أما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه. وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النفس. ولو أردت ذلك في المجهورة لم تقدر عليه». وقد نسب الزجاج معظم ما ورد في التعريف السابق إلى الخليل، انظر: معاني القرآن وإعرابه، ١/ ٤١٤. كما ورد من غير نسبة في مصادر كثيرة، منها أسرار العربية لابن الأنباري، ص ٤٢٣.

(٣٦) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (مادة جهر)، ص ١٠١، والحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص ١٥٢.

المقصودة (بالإرادة وقوة الدفع) التي تحسّسها سيبويه وشيوخه في الحلق والفم والخياشيم، أي في الفراغات فوق الحنجرية. وأن هذا الإشباع هو الذي يولّد الجهر وليس الاعتماد نفسه، لأنه يرد مع المهموس، كما سبق. وبناءً على ما تقدّم صار الطريق مفتوحاً لفهم تعريف سيبويه للجهر، كما جاء في باب الإدغام، إضافة إلى صوت الصدر. فصوت الصدر «صدى» منبعث من عمق الصدر أو غوره - وهو بحسب معارفنا أثر اهتزاز الوترين الصوتيين في الحنجرة - يجعل الهواء محصوراً فيندفع إلى الفراغات القابلة للوصف في الحلق والفم والخياشيم ويولّد إفراطاً في الأثر السمعي نتيجة حصر الهواء وتأثيره في جهاز النطق.

* * *

المصادر والمراجع

أ- الكتب:

- أسرار العربية، ابن الأنباري، تحقيق محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٥٧م.
- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط. رابعة ١٩٧١م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، تحقيق مصطفى حجازي، مراجعة عبد الستار أحمد فراج، وزارة الإعلام بالكويت (الجزء ١٧) ١٩٧٧م.
- تذكرة النحاة، أبو حيان النحوي الأندلسي، تحقيق عفيف عبدالرحمن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. أولى ١٩٨٦.

- تهذيب اللغة، الأزهرى، الجزء السادس، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى، ومحمود فرج العقدة، مراجعة علي محمد البجاوى، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- الخليل بن أحمد الفراهيدى، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائى، دار الهجرة، قم بإيران ١٤٠٥هـ.
- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري الحمد، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد ١٩٨٦م.
- سر صناعة الإعراب، ابن جنّي، تحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق ١٩٨٥م.
- السيرافي النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيويوه، عبد المنعم فائز، دار الفكر، ط. أولى، دمشق ١٩٨٣م.
- شرح الشافية لابن الحاجب، الأستراباذي، مع شرح شواهد له لعبد القادر البغدادي، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة ١٣٥٦هـ.
- شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، د.ت.
- شرح المقدمة الجزرية، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية، جدة، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٨م.
- شرح شافية ابن الحاجب، الخضر اليزدي، تحقيق حسن أحمد العثمان، مؤسسة الريان، بيروت ٢٠٠٨م.
- العربية الفصحى، هنري فليش، تعريب وتحقيق عبدالصبور شاهين، دار المشرق، بيروت ١٩٨٣م، (مصوّر عن الطبعة الأولى في المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٦م)

- في التطور اللغوي، عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. ثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. أولى ١٩٨٦م.
- كتاب مرويات شمر بن حمدويه اللغوية، شمر بن حمدويه، جمع وتحقيق ودراسة لحازم سعيد يونس البياتي، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، د.ت.
- الكتاب، سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
- الكتاب، سيبويه، طبعة بولاق بمصر ١٣١٧هـ.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت.
- معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، شرح وتحقيق عبدالجليل عبده شلبي، دار الحديث بالقاهرة، ط. أولى ١٩٩٤م.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- الممتع في التصريف، ابن عصفور، تحقيق فخر الدين قباوة، المكتبة العربية، حلب ١٩٧٠م.

ب- الدوريات:

- «أصوات اللغة عند سيبويه، مراجعة وتفسير»، أحمد محمد قُدور، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (٨٦)، الجزء الثاني لعام ٢٠١١م.
- «التفكير الصوتي عند العرب في ضوء سر صناعة الإعراب لابن جني»، هنري فليش، تعريب وتحقيق عبد الصبور شاهين، مجلة مجمع اللغة

- العربية بالقاهرة، المجلد (٢٣) لسنة ١٩٦٨ م.
- «الجهر والهمس عند سيويه في ضوء الدرس الحديث»، أحمد محمد قدور، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (٨٦)، الجزء الثالث لعام ٢٠١١ م.
- «المصطلح الصرفي في كتاب سيويه»، خديجة عبدالرزاق عبدالقادر الحديثي، مؤتمر النقد الأدبي الخامس، جامعة اليرموك ١٤/٦/١٦ م.

* * *